في مساحة الممكن .. وجدت نفسي!

ريمان شوامرة

ريمان هو المكان المرتفع، وهو، أيضاً، الاسم الذي أطلقته عليّ جارتنا، لأن أمي لم ترغب في تسميتي. وريمان هو الاسم الذي له أكثر من قصة، اسم أطلقته على ابنتي ليكون رداً على رغبة زوجي الذي حاول تسميتها باسم فتاة كان يود خطبتها سابقاً، ولكن لم تشأ الظروف بأن يحقق مراده.

فالاسم الذي هو اسمي، لم تطلقه أمي عليّ، لكنني أعدت تملكه وأطلقته على ابنتي، ليصبح اسماً أمتلكه وأفرضه كذلك في بيتي.

ما أذكره جيداً عن طفولتي أنني لم أتعلم في روضة وأنا صغيرة، بل بدأت من الصف الأول الأساسي مباشرة. ما أذكره جيداً عن المدرسة التي التحقت بها، أنها كانت بعيدة جداً عن بيتنا؛ بيتنا الذي كان يقع في بلدة صغيرة تسمى «خربة أبو العرقان». كان أهل البلدة يرسلوننا إلى هذه المدرسة البعيدة جداً لأنها كانت الأقرب لنا، كنا نصل إليها مشياً على الأقدام صيفاً وشتاء، كنا نذهب دون أي مصروف ودون أن يخافوا علينا، ليس إهمالاً بل أيمان طبيعي بأننا سنبقى وأننا أقوياء. كانت الطريق طويلة، وكنت أقضيها بكاءً. كان المعلم أبو ناصر هو أول شخص غريب ألتقي به. كان معلمو مدرستي كلهم ذكور، فلم أكن أشعر بالراحة، فكنت أهرب من المدرسة، لا، لم أهرب بل وجدت زاوية أختبئ بها كل يوم.

بقيت مدرستي بعيدة حتى الصف التاسع، حيث انتقلت إلى مدرسة أخرى في يطا إثر خلاف عائلي بين عائلتي وعائلة أخرى نتج عنه ثأر اضطررنا عقبها أن نخرج من البلدة إلى يطا، حيث أنهيت دراستي الثانوية.

كانت المرحلة التالية هي الزواج المبكر، فتزوجت وعشت مع زوجي في مخيم قلنديا حيث كونت أسرة من 4 أطفال، 3 أولاد وابنتي ريمان.

حلمت دوماً بالشهادة الجامعية، لكن الظروف كانت تعاندني كثيراً، فعندما كان لدّي طفلان، ولم أكن أملك المال لأضعهما في حضانة تعتني بهما أثناء غيابي، وكذلك لم أملك المال

الكافي للتسجيل في الجامعة، عملت مع جمعية إنعاش الأسرة في المطرزات حتى أجمع المال وأحقق به حلمي.

التحقت بالجامعة تخصص محاسبة، وعندما قطعت سنتين، واجهت صعوبة في حضور المحاضرات والالتزام بها، بسبب عدم وجود مُعين لي، فاضطررت إلى تحويل تخصصي واختيار تخصص آخر يمكنني أن أدرسه دراسة بيتية، فبدأت بتخصص التربية الابتدائية، وأنهيته وتخرجت العام 2006.

عندما تخرجت لم أجد عملاً بشهادتي، فقررت أن التحق بورشة في التصوير، وامتهنته لأستقل مادياً، إلى أن جاءتني فرصة للعمل في إحدى الرياض الخاصة؛ معلمة للصف التمهيدي الذي يحتوي على 15 طفلاً براتب شهري 550 شيكلاً، مع شرط إضافي بأن أي طالب يترك سيتم خصم مبلغ 50 شيكلاً من راتبي، فكان هذا أول درس لي عن المهنة الجديدة، وهو أن عليك أن تحافظ على الطلاب كي تبقي راتبك كما هو عليه.

استمريت في العمل مدة 6 سنوات من (2006-2012)، «أبو عمر»؛ صاحب الروضة كان رجلاً تربوياً ولديه أسلوب خاص، فكان يقول لنا دوماً: «التعليم يجب أن يقوم على الفهم، وعلى كل معلمة أن تجد طريقتها، لكن على كل الطرق أن تسمح للأطفال بأن يفكروا ويستنتجوا ويتحاوروا. كان أبو عمر متقدماً على ما يحدث في الروضات المجاورة، فكنا نتأخر عن تعليم الحروف والأرقام، فكان الأهل يأتون إلينا قائلين إننا متأخرون جداً، والروضات الأخرى سبقتنا كثيراً بالحروف والأرقام، كنت حينها أعود إلى «أبو عمر» لأنقل له ما يقوله الأهل فيرد قائلاً: لا تكترثي بما يقولونه، تعلّمي أكثر عن طلابك، وجدي طريقك إليهم وطريقهم إليك، ثم لاحقاً ستجدون معاً طرقاً كثيرة تُعلّمي منها المادة والمنهاج. حاولي دوماً أن تجعلي الطفل يعتمد على نفسه، وابدئي دائماً من العام، والأكثر شمولاً، ثم انتقلي إلى الخاص والخصوصي.

بدأت حينها أجد طريقتي، وبدأت بإنتاج وسائل تعليمية، مثل اللوحات والبطاقات والألعاب التربوية للتوسط بيني

جانب من تطبيقات المربية ريمان شوامرة مع أطفالها في روضة «الفقيه» في كفر عقب.

وبين طلابي، وأعلمهم من خلالها. لم أكن أملك من الأفكار الكافية في ذلك الوقت سواها.

أثبتت وجودي في الروضة التي حققت فيها حلمي، حتى صرت المشرفة فيها. في أحد الأيام، وصل الروضة برنامج تطرحه مؤسسة عبد المحسن القطان لتدريب مربيات رياض الأطفال، قدمت للبرنامج، ولكن لم يتم قبولي لأنني مشرفة ولست مربية، فتوجهت إلى «القطان» لأعبر لهم عن حاجتي العميقة للالتحاق بالبرنامج، لأنني بحاجة إلى تطوير ذاتي أكثر، وبخاصة لأنني سمعت أن برنامج «القطان» هو برنامج جديد، ويتجاوز حدود التعليم العادي والمنهاج، وأكدت لهم أنني ما زلت أعلّم وأتعامل مع الأطفال، ولست مشرفة فقط.

تم قبولي في البرنامج، وهنا بدأت رحلة تعلم جديدة لي، تعلمت من خلالها كيف أكون معلمة أطفال مختلفة، معلمة أطفال تعلم بأن لكل طفل قصته الخاصة وخصوصيته التي تميزه عن الآخرين، وأن التعليم له نوافذ عدّة، ولا يقتصر على نافذة واحدة، فعلّمت من خلال عباءة الخبير، والتعلم عبر المشروع.

وجدت في التعليم الجديد شيئاً ممتعاً وأسلوباً مختلفاً، تعليم يتوسط بين المعلمة وطلابها ... إنه العالم ... إنه الخيال. لم تعد الوسيلة أداتي، بل أصبح الطلاب يتعلمون وينتجون وسائلهم الخاصة بهم. أصبحت الوسائل ليس عالم التعلم وموضوعه، بل أصبحت جزءاً صغيراً من أدوات لعب الأطفال ومنتجات تخيلاتهم.

اختلفت كل اللغة التي أستخدمها مع طلابي، فأصبحت كلمة «ممكن» تحل مكان كلمتي «صح، أو خطأ»، كلمة «ممكن» فتحت التعليم، وأعطت طلابي مساحة كبيرة ليفكروا ويبدعوا ويكبروا. في مساحة الممكن، التقيت بنفسي وبطلابي.

روضة الفقيه-كفر عقب

تطبيقات المربية شوامرة مع أطفال الروضة.